مهمة الإنسان ورسالته فى هذا الكون

من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة [1]

● **الخطبة الأولى :**

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يجعل الله له نورًا فما له من نور . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل ، وأكرمنا بخير نبى أرسل ، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [2] ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ونصح للأمّة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبى الكريم ، وعلى آله وصحابته ، وأحينا اللهم على سنته ، وأمتنا على ملته ، واحشرنا فى زمرته ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

أمّا بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون :

لكل شىء فى الوجود مهمة ورسالة ينبغى أن يؤديها . . . للجماد رسالة ، وللنبات رسالة ، وللحيوان رسالة ، وللإنسان رسالة .

---

(١) تولى الأستاذ القرضاوى مهمة خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالدوحة منذ إنشائه ، ما لم يكن مسافرًا ، كما يقوم تلفزيون قطر ببث الخطبة على الهواء ، فيسمعها المسلمون فى قطر والبحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية وغيرها .

(٢) المائدة : ٣ .

ورسالة الإنسان أن يعبد الله عز وجل [1] ويعرفه حق المعرفة ، كما يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [2] ، ويقول سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [3] ، أى أن الله خلق العالم العلوى بسماواته ، وخلق العالم السفلى بأراضيه ، لحكمة وغاية ، هى أن يعرف الناس ربهم .

الإنسان هو المقصود من خلق السموات والأرض ، هذا الإنسان على صغر حجمه، وعلى ضآلة جسمه ، وعلى قصر عمره ، الإنسان بالنسبة للكون شىء صغير صغير ، نحن نعيش فى جزء من قارة ، والقارة جزء من هذه الكرة المعلقة ، التى نسميها الأرض ، والأرض جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية ، والمجموعة الشمسية جزء صغير صغير من المجرة التى نعيش فيها والتى يطلقون عليها: سكة التبانة ، لأن النجوم تتناثر فيها ، كما يتناثر التبن فى سكة من يحملون التبن ، لا عدد لها ولا حصر لها ، بالملايين ، وأى نجم فيها أضعاف هذه الأرض بمئات وآلاف المرات وربما بالملايين .

هذه إحدى المجرات التى فى هذا الكون ، والتى مجموعتنا الشمسية جزء منها ، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات التى يقوم عليها هذا الكون .

الكون كون كبير فسيح جداً ، لا يعلم حدوده إلا الله ، وهو يمتد ويتسع كما يقول العلم الآن ، وكما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [4] .

كان النبى عليه الصلاة والسلام يقول إذا اعتدل من ركوعه : « اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شىء بعد » [5] أى بعد

---

(١) انظر فصل (العبادة مهمة الإنسان الأولى فى الوجود) من كتاب (العبادة فى الإسلام) للأستاذ القرضاوى .

(٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ . (٣) الطلاق : ١٢ . (٤) الذاريات : ٤٧ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ورواه أبو داود ، =

السموات والأرض ، ولهذا يسأل بعض الناس عن قوله تعالى : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ . . . ﴾ (١) ، وفى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، إذا كان عرضها عرض السموات والأرض ، فماذا يكون طولها ؟! والعرض دائماً أقل من الطول ، إنها شىء لا يعلمه إلا الله .

إذن هناك عالم فوق السموات والأرض ، والسموات حتى الآن لا نعلم حقيقتها ما هى ؟ ما هى السموات ؟ إن الله تعالى ذكر لنا أن السماء الدنيا زينها بمصابيح . . . زينها بالكواكب وبالنجوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ . . . ﴾ (٣) ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ ﴾ (٤) أى النجوم ، ومعنى هذا أن كل ما نراه ونعرفه من النجوم هو فى السماء الدنيا التى نراها ، والتى يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين ، أو بعد ملايين السنين ، بل يزعم العلماء اليوم أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد ، رغم ملايين السنين فيما يقولون ، نحن لا نعرف إلا هذه السماء الدنيا ، فماذا يكون وراءها ؟! وأين سائر السموات السبع ؟

إذن الإنسان من حيث هذا الكون ، من حيث حجمه ، مخلوق ضئيل ، ومن حيث الزمان مخلوق ضئيل ، كم يعيش الإنسان ؟ جاء فى الحديث : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » (٥) ، وهب أنه بلغ المائة ، أو جاوز المائة إلى مائة وخمسين ، أو مائتين ، أو عمر ما عمرّ نوح ، ولم نعرف فى التاريخ أحداً عمرّ ما عمرّ نوح ،

= والنسائى ، وتتمته : « . . . أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ » (الأذكار للنووى بتحقيق محيى الدين مستو ، حديث ١١٥) .

(١) الحديد : ٢١ .
(٢) آل عمران : ١٣٣ .
(٣) الملك : ٥ .
(٤) الصافات : ٦ .
(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة ، ورواه أبو يعلى عن أنس ، وحسنه السيوطى فى (الجامع الصغير) ، وتتمة الحديث : « وأقلهم من يجوز ذلك » .

الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون، ولا ندرى كم عاش قبل البعثة ، الغالب أنها أربعون سنة ، ولا كم عاش بعد الطوفان ، على كل حال عمرٌ أكثر من ألف سنة ، ولكن ما النتيجة ؟ النتيجة هى : الموت .

وإذا كان آخر العمر موتا فسواء قصيره والطويـــل

عند الموت يتلاشى هذا كله ، ويصبح العمر كأنه لحظات ، ويخيل للإنسان أنه لو عاش برهة ولو قصرت ، يعوض فيها ما فات ، ويتدارك ما فرط فيه ، وهيهات هيهات ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا . . . ﴾ (١) .

الإنسان من حيث عمره شىء ضئيل ضئيل جدًا ، بالنسبة للأزل من قبله ، وللأبد من بعده ، ما قيمة هذا الإنسان إذن ؟ ما قيمته ؟ ليس له قيمة كبيرة من ناحية المكان، ولا من ناحية الزمان ، ومن ناحية هذا الجسم لا قيمة له ، هو جزء من التراب ، لو حللته لوجدته مجموعة من المعادن والعناصر ، بعضها من الحديد ، وبعضها من الفوسفور ، وبعضها من كذا ،وبعضها من كذا ، تشترى ببضع ريالات، وتتحلل كلها بعد الموت ، وتستحيل إلى تراب .

ليس للإنسان قيمة إذن من هذه الناحية المادية .

قيمة الإنسان فى هذا الشىء الذى أودعه الله تعالى فيه ، ليست فى التراب ، ولا فى الطين ، ولا فى الصلصال ، ولا فى الحمأ المسنون ، إنما فى هذا السر ، فى هذه اللطيفة الربانية ، فى هذه الجوهرة الروحانية ، فى هذا الشىء الذى نفخه الله فيه ، والذى استوجب به أن تسجد له الملائكة تحية وتكريمًا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٢) * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٣) لماذا يسجدون ؟ تكريمًا لهذا النفخة من روح الله .

---

(١) المنافقون : ١١ .

(٢) وفى آية أخرى : ﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر : ٢٨] .

(٣) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ .

هذا هو الذى جعل للإنسان مكانة أى مكانة ، وإلا لو كان الأمر يدور حول الطين والحمأ المسنون ، ما ساوى الإنسان شيئًا .

بهذه النفخة الروحانية كان الإنسان إنسانًا ، استحق أن يكون خليفة الله فى الأرض، وأن تشرئب أعناق الملائكة لتتبوأ منصبه ومنزلته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِمَاءَ . . ﴾(١).

يبدو أنهم استنتجوا ذلك من طبيعة الطين والحمأ المسنون التى رأوها فى أول الأمر، ولم يدركوا السر الآخر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِّن رُّوحِى ﴾ فقالوا : إن مثل هذا المخلوق الطينى ، لا بد أن يغلب عليه الطين ، وينزع إلى الأرض ، ويخلد إلى التراب ويقع منه الفساد وسفك الدماء ﴿ . . وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . ﴾(٢) فكان الجواب الإلهى ، أن قال الله لهم : ﴿ . . إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وعقد امتحانًا لآدم وللملائكة ، ظهر فيه فضل هذا المخلوق ،والسر كله يرجع إلى : ﴿ . . وَنَفَخْتُ فِيهِ مِّن رُّوحِى . . . ﴾ (٤) .

هذا هو الإنسان ، حقيقة الإنسان ليست هذا الغلاف ، ليست هذا الجسم المكون من الأجهزة والخلايا والدم واللحم والعظام والأعصاب ، لو كان الأمر أمر جسم ، لكان الثور أعظم من الإنسان ، لكان الفيل أعظم من الإنسان ، فما أضخمه ، وما أعظم من جسمانه ! ولكن سر الإنسان فى هذا (الروح الإلهى) الذى يسرى بين جنبيه ! هذا هو أنت أيها الإنسان ، بهذا صرت عظيماً فى ملكوت السماء ؟ ينسبون إلى الإمام علىّ رضى الله عنه قوله :

دواؤك فيك وما تشعـــــر وداؤك منك وما تبصـــــر !

وتزعم أنك جرم صغيـــــر وفيك انطوى العالم الأكبر !

العالم الأكبر فى هذا الإنسان ، هذا المخلوق العجيب ، ومن هنا كانت قيمة الإنسان .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البقرة : ٣٠ . (٤) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

ومن هنا سخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، الكون كله فى خدمة الإنسان ، مسخر لمنفعته ، الشمس تضىء له ، والنجوم تهديه ، والبحار والأنهار ، وكل ما فى هذا الكون لخدمته ، جعل الله له الأرض ذلولاً ليمشى فى مناكبها ويأكل من رزقه ، سخر له البحر ليأكل منه لحمًا طريًا ، وليجرى الفلك فيه مواخر ، وليبتغى من فضله ، ولعله يشكر الله عز وجل[1]، سخر له المخلوقات العظيمة فوقه وتحته ، لتكون فى خدمته ، ﴿ اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ به مِنَ الثَّمَرَات رِزْقًا لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِه ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ والنَّهَارَ * وآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [2] .

أنظروا إلى كلمة (لكم) وتكريرها فى هذه الآيات خمس مرات ، الكون كله مسخر لمصلحة هذا الإنسان ، ولخدمة هذا الإنسان .

ولكن الإنسان نفسه لمن سخر ؟ ومن يخدم ؟ إنه قد أعدّ لخدمة الرحمن ، كل ما فى الكون خلق للإنسان ، أما الإنسان نفسه فخلق للرحمن !

إذا نظرت إلى مراتب الكائنات فى هذا الكون ،وجدت كل كائن يخدم ما هو أعلى منه مرتبة ، الجماد يخدم النبات ، والنبات مع الجماد يخدم الحيوان ، والحيوان مع النبات والجماد يخدم الإنسان .

الأرض تخرج النبات ، والماء والمطر والشمس وهذه المخلوقات تعمل لإحياء النبات ، وإمداده بالغذاء ، حتى ينمو ويترعرع ، ويزهر ويثمر ، وهذا النبات يأتى الحيوان فيأكله ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [3] .

الحيوان الذى خدمه النبات يخدم الإنسان وهو مسخر للإنسان ، هذه الأنعام تخدمك وهى صحيحة ، وتأكلها وهى ذبيحة .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا منْهُ لَحْمًا طَرِيا وَتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا من فَضْلِه وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٤].

(٢) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

(٣) النازعات : ٣٣ .

أما الإنسان ذاته فمن يخدم ؟ من ذا الذى يخدمه الإنسان ؟ ليس هناك من هو أعلى من الإنسان من المخلوقات ، إنما يخدم الإنسان الله عز وجل .

لهذا كانت الوثنية عكسًا للحقائق ، وقلبًا للأمور ، حينما جعلت الإنسان يذل ويخضع لما هو أدنى منه ، يعبد الطبيعة ، يعبد الأبقار ، يعبد الأنهار ، يعبد الأشجار ، يعبد الكلاب ، يعبد الشمس أو القمر ، يعبد الجمادات أو النباتات ، أو الحيوانات أو الأفلاك ، وكلها دون الإنسان ، وكلها فى خدمة الإنسان .

الإنسان خلق لله ، ليعرفه ويعبده ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ - مثلهن فى العدد ، أو مثلهن فى التكوير ، أو مثلهن فى روعة الخلق وإبداعه - ﴿ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (١) ، لتعرفوا الله عز وجل بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، أنه القادر على كل شىء ، والعالم المحيط بكل شىء .

ليس معنى معرفة الله أن نعرف حقيقة ذاته ، لا ، هذا أمر تنقطع دونه الأعناق ، إننا لم نعرف حقيقة أنفسنا ، فكيف نعرف حقيقة خالقنا ؟! إن بعض (البسائط) فى هذا الكون عجزنا عن إدراك كنهها ، إن الإنسان رغم تقدمه العلمى الهائل حتى أنه غزا الفضاء ، ويحاول أن يصل إلى كواكب بعيدة ، عجز عن معرفة حقيقة نفسه ، حتى ألف رجل من أقطاب العلم كتابًا شهيرًا سماه : (الإنسان ذلك المجهول)(٢)، ألفه الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على (جائزة نوبل) فى العلوم (٣) . يقول: إننا عرفنا الكثير عن الجمادات ، وعن الأشياء من حولنا ، ولكننا نجهل الكثير عن

---

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) وقد اقتبس منه الشهيد سيد قطب - عليه رحمة الله - مقتطفات ضمنها كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) فصل : الإنسان ذلك المجهول ، أراد بذلك أن يؤكد نظرية الإسلام فى شأن الإنسان ، والتى تقرر تسليطه على عالم المادة ، وتسخيره له ، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له فى الخلافة ، وفى الوقت ذاته تقرر جهله المطبق بالإنسان ، وإعفاءه تبعًا لهذا من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه ،وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته فى الأرض ، ثم إلزامه باتباع منهج الله هذا .

(٣) عام ١٩١٢ م .

أنفسنا ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً ﴾ (١) . لم نعرف إلا القليل ، ولهذا إذا قلنا : خلق الله الكون لنعرفه سبحانه ، فليس معنى هذا أن نعرف كنه ذاته ، لا .

نحن نتفكر فى خلق الله . . . فى آلاء الله ، ولكنا لا نتفكر فى ذات الله ، فهذا باب مغلق ، نحن نؤمن بالغيب ، ولا نبدد طاقتنا العقلية فيما لا سبيل للوصول إليه، أولى بنا أن نبحث فى الكون ، ونكتشف قوانينه ، ونعرف سننه ، ونسخره - كما أراد الله - لخدمتنا ، بدل أن نضيع أنفسنا فيما لا طائل تحته .

لقد انحرف بعض المسلمين فى بعض العصور ، وبحثوا فى أمور إلهية لا معنى لها : الذات والصفات وعلاقة الذات بالصفات ، وقامت معارك كلامية وجدلية ، كان معظمها منتحلاً ولا معنى له ، وكان أكثرها من تأثير الفلسفات والنحل والملل الأخرى ، ولو وقفوا عند القرآن ما جرهم إلى هذا ، لو عرفوا أن عليهم أن يقفوا عند هذا الباب ، ويقولوا ما قال الراسخون فى العلم : ﴿ . . آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) لكان هذا أولى وأجدر وأبعد عن هذه المتاهات التى دخلوا فيها ، دون أن يظفروا منها بثمرة ، حتى قال قائلهم :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلانه يتغمغم

ما للتراب وللعلوم ؟ وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم !

خلقنا الله تعالى لنعرفه ، وإنما نعرفه بآثاره فى الأنفس والآفاق : ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤) العلم اليوم يساعدنا على بيان آثار الله تعالى فى هذا الكون ، وكيف نظم التنظيم الدقيق ، وأحكم الإحكام البالغ ، الذى يدل على عظمة الصانع ، وعلى حكمة المدبر ، فلا تستطيع إلا أن تقول : سبحان الذى أحسن كل شىء خلقه : ﴿ صُنْعَ

---

(١) الإسراء : ٨٥ .
(٢) آل عمران : ٧ .
(٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .
(٤) فصلت : ٥٣ .

الله الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىءٍ . . . ﴾ [1] هذا ما يلحظه كل من ينظر فى هذا الكون ، وماَ أحسن ما قال أبو العتاهية قديمًا :

ألا إننا كلنا بائـــــــد وأى بنى آدم خالـــــد ؟
وبدءهم كان من ربهـــم وكل إلى ربه عائـــــد
فيا عجبا كيف يعصى الإلـه أم كيف يجحده الجاحـــد ؟
ولله فى كل تحريكـــــة وفى كل تسكينة شاهـــد
وفى كل شىء له آيـــة تدل على أنه الواحـــد !

إنه الله ، تراه فى كل شىء ، تراه بعين قلبك ، بعين عقلك ، ولا بعين بصرك ، فأبصارنا أكلّ وأقل من أن تراه فى هذه الدنيا ، وإنما تراه هناك فى الآخرة ، حيث الكافرون عن ربهم محجوبون ، وحيث المؤمنون على الأرائك ينظرون ، كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [2] ﴿ كَلا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [3] [أى المشركين] .

خلقنا الله تعالى لنعرفه ، فإذا عرفناه عبدناه حق العبادة ، عرفنا أنفسنا فعرفنا ربنا، عرفنا مخلوقات الله فعرفنا خالقها ، فأدينا له حقه ، عبدّنا له أنفسنا ، لم نعبّدها لأحد غيره ، ولا لشىء غيره ، فما يستحق شىء فى الأرض ولا فى السماء، أن نحنى له ظهورنا راكعين ، أو نعفر له جباهنا ساجدين ، لا ركوع إلا لله ، ولا سجود إلا لله ، ولا ذل إلا لله ، ولا خضوع إلا لله ، ولا رجاء إلا فى الله ، ولا خوف إلا من الله ، هذه هى العبودية ، أن نعبد الله : ﴿ . . . إِلا لِيَعْبُدُونِ . . . ﴾ [4] لنمتثل أوامره ونجتنب نواهيه ، ونقيم دينه فى الأرض ، فهذه هى العبادة بمعناها الشامل .

خلقنا الله تعالى لنعبده حق عبادته ، لنتضرع إليه ، لنسأله وندعوه ، لنصلى له ،

---

(١) النمل : ٨٨ . (٢) القيامة : ٢٢ ، ٢٣ . (٣) المطففين : ١٥ .
(٤) يشير إلى قوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

لنحسن إلى خلقه ، ونرحم الضعفاء من عباده ، لنبذل المال والأنفس من أجله ، هذه هى العبادة ، وقد روى فى بعض الأحاديث الإلهية : « عبادى إنى ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ،ولا لجلب منفعة ،ولا لدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدونى طويلاً ، وتذكرونى كثيرًا ، وتسبحونى بكرة وأصيلاً » ، لهذاخلقنا الله عز وجل ، خلقنا لهذه المهمة ، لنعبد الله بكل ما تتسع له كلمة (العبادة) ، وهى تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ، فإقامة الشعائر عبادة ، وبر الوالدين عبادة ، وصلة الأرحام ، وإكرام الجيران ، وأداء الواجبات ،وفعل الخير ، والدعوة إليه،والجهاد فى سبيل الله ، كلها عبادة .

ومن هذه العبادة أيضًا عمارة الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾ (١) ومن هذه العبادة القيام بحق الخلافة : ﴿ . . . إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً . . . ﴾ (٢) ﴿ . . . وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(٣)، هذه هى مهمة الإنسان فى هذه الحياة ، وفى هذا الكون : أن يقوم بحقوق العبادة والخلافة والعمارة .

ولذلك إذا لم يقم الإنسان بهذه المهمة ، كان أضل من الأنعام سبيلاً ، الله تعالى يقول : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَو يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٤) وفى آية أخرى يقول : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٥) . هذا هو وصف حطب جهنم ووقود النار من أولئك الذين عطلوا تلك الأجهزة التى منحها الله إياهم ، ليطلوا بها على الكون، لتكون نوافذ للمعرفة ، ولكنهم خربوا هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها ، وأعين ولكنهم لا يبصرون بها ، وآذان ولكنهم لا

---

(١) هود : ٦١ . (٢) البقرة : ٣٠ . (٣) الأعراف : ١٢٩ .
(٤) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ . (٥) الأعراف : ١٧٩ .

يسمعون بها ، لأنه إذا لم يفقه بقلبه مهمته التى خلق لها ،ولم يعرف الخالق الذى أوجده ، فإن قلبه لم يعد قلبًا ، أصبح لا معنى له ، وكذلك إذا لم ير آثار الله فى الكون ، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان نظره ستة على ستة ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) ، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ ،ولا يسمع صوت الحق ، فهو أصم ، كما قال الله تعالى فى صنف من الناس : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢) ، خربوا الآلات والأجهزة الإلهية، فانتهوا إلى أنهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضل .

الإنسان يمكن أن يرتقى فيكون كالملائكة أو أفضل ، ربما يكون أفضل من الملائكة، لأن الملائكة لم تؤت ما أوتى من الغرائز والشهوات ، ولم يسلط عليها ما سلط على الإنسان من قواطع الطريق من الداخل ومن الخارج ، فإذا تغلب الإنسان على هذه العوائق والقواطع وارتقى أصبح أفضل من الملائكة ، وأصبح خير البرية على الإطلاق كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٣) .

وكما أن فى الإنسان استعدادًا ليرتقى ويرتقى ، عنده استعداد لأن ينحدر وينحدر، ويهبط ويهبط ، حتى يكون كالحيوان الأعجم ، بل أضل من الحيوان سبيلاً : ﴿ . . . أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . . . ﴾ (٤) لماذا كانوا أضل ؟ كانوا أضل لأن الأنعام لم تؤت ما أوتى الإنسان ، لم تؤت العقل الذى يفكر ، ولا الإرادة التى تحرك أو ترجح ، ولم تؤت هذه المواهب الروحية والعقلية التى أُودعهَا الإنسان ، الحيوان ليس فيه سر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . . . ﴾ (٥) فالحيوان معذور .

ومن ناحية أخرى فإن الأنعام تؤدى مهمتها . . . تقوم بدورها المطلوب منها فى الحياة ، هل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب ؟ أو بعيرًا امتنع أن يركب ؟ إنها تقوم بوظيفتها فى الحرث والسقى ، وحمل الأثقال إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق

---

(١) الحج : ٤٦ .
(٢) البقرة : ١٨ ،وفى آية أخرى : ﴿ صُم بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُم لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١].
(٣) البينة : ٧ . (٤) الأعراف : ١٧٩ . (٥) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

الأنفس ، تركبونها وزينة ولكن الإنسان إذا لم يعرف الله ،ولم يقم بعبادته وخلافته فى الأرض ، فإنه لم يؤد مهمته . . . لم يؤد رسالته ، ولذلك كان أضل من الأنعام سبيلاً .

ومن هنا ماذا تقول فى هؤلاء الناس الذين يعيشون ويموتون ولم يعرفوا الله ؟! أولئك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله عز وجل ، ما هم هؤلاء ؟ هؤلاء كفار ، ما قيمة هؤلاء ؟ هذا التراب الذى يأكل من التراب ، ويمشى على التراب ، وينتهى إلى التراب ، هذا الطين المتعالى المتعجرف ، ما قيمته وما منزلته حتى يجحد وجود الله ؟

وكذلك أولئك الذين يؤمنون بوجود الله ، ولكنهم لا يقومون بحقه ، حتى من بين أبناء المسلمين ، هذا الذى يتسمى بمحمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن ، بما حمدّ وعبد من الأسماء ، بأسماء الأنبياء وأسماء الصحابة ، هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانى المسلمين ، ولا تراهم لله راكعين ولا ساجدين ،الذين يعبّون من الشهوات ، الذين يركضون وراء اللذات ، الذين ﴿ . . . أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ واتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (١) ، ما رسالة هؤلاء ؟ ما رسالتك أيها الإنسان؟ أخلقت لمجرد أن تأكل وتشرب ؟! هكذا تصنع الأنعام ، ماذا زدت على البقرة فى بيتك أو الناقة أو الجمل أوالحمار ؟ ما قيمتك أيها الإنسان إذا لم تكن لك مهمة أعظم وأرقى ؟ ما قيمتك إذا لم تعرف الله ولم تعبد الله ؟

إن معرفة الله تعالى وعبادته هى الغاية التى من أجلها خلق الإنسان ، فعلى الإنسان أن يعرف غايته ، أما إذا عاش لا يعرف لماذا يعيش ؟ وما هى غايته ؟ وما هى رسالته ؟ فما هو بإنسان !

بعض الناس يعيش موجودًا كمفقود ، حيًا كميت ، حاضرًا كغائب ، هذا ليس بإنسان ، لا يحسب من الأحياء ، ولا يحسب من بنى آدم .

وآخرون حددوا غايتهم فى المتع . . . فى الشهوات ، وهؤلاء هم الذين قال الله

---

(١) مريم : ٥٩ ، وأولها : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ . . . ﴾ .

تعالى فيهم ، وفى أمثالهم من الكفرة الفجرة : ﴿ ... وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١) .

هناك أناس يعيشون بلا إحساس كما تعيش الجمادات ، وأناس يعيشون بغرائزهم ولغرائزهم كما تعيش الأنعام ، تجرى وراء الشهوات ، وأناس يعيشون كما تعيش الشياطين ، مهمتها الكيد والإيذاء لخلق الله ، والإفساد فى الأرض .

أما الإنسان ... الإنسان الحق ، أعنى الإنسان المؤمن ، فليس هناك إنسان إلا المؤمن ، ما عدا المؤمن فليس بإنسان ، وإن حسب من الناس ، وإن سجلته التعدادات والإحصاءات فيما يسجل من أعداد الناس ، المسألة ليست بالكم ... ليست بالعدد ، الإنسان الحقيقى هو الإنسان المؤمن ، الذى يعرف الله تعالى ، ويقوم بحقه ، ويعبده فى أرضه ، ويقيم أمر دينه ، هذا هو الإنسان ، وهو الذى جاء الإسلام ليصنعه ... ليربيه ... ليكونه ، يكون شخصيته المتكاملة ، وهو الذى رباه النبى ﷺ فى دار الأرقم بمكة ، وفى مسجده بالمدينة ، ليكون صالحًا فى نفسه ، مصلحًا لغيره ، من ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (٢) .

هذا الإنسان هو الذى انطلق بالقرآن ، وانطلق بالإسلام ، إلى أقاصى الدنيا شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، وأقام فيها حضارة العلم والإيمان ، ودولة العدل والإحسان ، هذا هو الإنسان ... إنسان الإسلام .

فيا أيها المسلم ... يا أيها الإنسان : اعرف غايتك ، واعرف رسالتك ، وجند نفسك لها ، وعش لهذه الغاية ، عسى الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنكون أناسى حقًا ، نعرف حقنا ، ونعرف واجبنا ، ونعرف مهمتنا فى أرض الله ، اللهم وفقنا لما تحب وترضى ، اللهم آمين .

أقول قولى هذا واستغفر الله تعالى لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم .

---

(١) محمد : ١٢ .

(٢) العصر : ٣ .

● الخطبة الثانية :

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، البشير النذير ، والسراج المنير ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه الذين ﴿ آمَنُواْ به وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ، ورضى الله عمن دعا بدعوته ، واهتدى بسنته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له ، ولعلها تكون هذه الساعة (٣) .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا ، اللهم أكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولاتؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا .

---

(١) غافر : ٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) يشير الشيخ إلى حديث أبى هريرة المتفق عليه ، أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » وأشار بيده يقللها . والمراد بالساعة هنا (معناها اللغوى) وهو : برهة من الزمن ، ولهذا قال : وأشار بيده يقللها ، ليسارة وقتها ، وأما تعيين الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافًا كثيرًا ، وأفاض الإمام ابن القيم فى ذكر أقوالهم ورجح منها قولين ، أحدهما : أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة ، أنظر : (زاد المعاد : ١/ ٣٨٨ - ٣٩٧) بتحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الأرناؤوط) ، وانظر أيضًا (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للشيخ القرضاوى : ١/ ٢٤١ - ٢٤٣) .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى فلسطين ، وانصر إخواننا المجاهدين فى أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين فى اريتريا ، وانصر إخواننا المجاهدين فى الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين فى كل مكان ، اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر ، اللهم أيدهم بملأ من جندك ، وأمدهم بروح من عندك ، واحرسهم بعينك التى لا تنام ، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام ، اللهم عليك باليهود الغادرين ، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين ، اللهم عليك بالصليبيين المستعمرين ، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين ، اللهم ردّ عن المسلمين كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) . اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

﴿ . . . وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ، واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) الحشر : ١٠ . (٢) الأحزاب : ٥٦ . (٣) العنكبوت : ٤٥ .

التوبة

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدثنا عن مهمة الإنسان فى هذا الكون ، المهمة التى خلق الله تعالى لها الإنسان، خلق الله الإنسان ليعرفه ويعبده : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١) .

لهذا كان لابد لنا من حديث عن هذه المهمة ، عن هذه الغاية ، عن هذه العبادة، وسنتحدث عن نوع من العبادة يغفل عنه الناس ، فالعبادة نوعان : ظاهرة ، وباطنة .

الظاهرة : كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وهى أركان الإسلام العملية،ولكن هناك نوعًا آخر من العبادات له أهميته ،وله ضرورته ، ولا تصح هذه العبادات الظاهرة إلا إذا توافر ذلك اللون من العبادات الباطنة ، إنها العبادات المتعلقة بالقلب ، والقلب هو حقيقة الإنسان « ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢) . « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » (٣) .

القلب هو موضع نظر الله تبارك وتعالى ، وهو الحجة التى تقدمها يوم القيامة إذا أردت النجاة ، هو المستند الفذ الذى به تثبت براءتك ، وتثبت صحة إيمانك ﴿ يَوْمَ

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) هو جزء من حديث النعمان بن بشير المتفق عليه ، وأوله : « إن الحلال بيّن ، وإن الحرام بين » وهو السادس من الأربعين النووية ، وانظر (جامع العلوم والحكم) ، و(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) للشيخ القرضاوى : (٢/٥٠٦ ، الحديث ٩٦٦) .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) : (١/١٠٣ - ١٠٤، الحديث ٧) .

لا يَنفعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (١) ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٢) ، القلب السليم . . . القلب المنيب ، هو أساس الدين حقًا .

القلوب عليها المعوّل ، اعمل ما شئت من الأعمال الظاهرة ، فلن تقبل عند الله إذا كان قلبك مغشوشًا ، إذا كانت نية الرياء قد داخلتك ، إذا لم تجرد النية لله وحده: ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلا لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ . . . ﴾ (٣) ، ولا بد من أن يأتى وقت نتحدث فيه عن حقيقة النية والإخلاص ، الذى هو أساس القبول للأعمال كلها .

ولكنا اليوم نتحدث عن عبادة قلبية مهمة ، هى الخطوة الأولى فى الطريق إلى الله عز وجل ، هذه الخطوة هى : التوبة .

أن تتوب إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنك لا تستطيع أن تسلك الطريق إذا كنت تحمل أثقالاً تؤود ظهرك ، ولا تقدر بها على أن تمشى خطوة إلى الأمام ، لا بد من أن تتخفف ، فلا بد من أن تسقط هذه الذنوب عن كاهلك ، كيف تسقطها ؟ إنما تسقطها بالتوبة ، ما معنى التوبة ؟ التوبة مأخوذة من (تاب) ، وكلمة (تاب) فى اللغة العربية تعنى : عاد ، ورجع ، كأن الأصل أن تكون دائمًا مع الله ، لا تفارقه، وكيف تستطيع أن تفارقه ؟ ووجودك مستمد من وجوده ، وحياتك وبقاؤك ورزقك وهدايتك ، وكل ما بك من خير فهو منه تعالى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . ﴾ (٤) .

ماذا تكون أنت لولا الله ؟! أنت أيها الإنسان ، الطويل العريض ، الذى يمشى فى الأرض مرحًا ، الذى يثنى عطفيه ، ويصعّر خدّيه ، ماذا أنت لولا الله ؟!

لولا أن الله خلقك ، وسواك ، ونفخ فيك من روحه ، وأعطاك القوة ، وسخر لك هذا الكون ، ورزقك العقل ، وعلمك البيان ، وهداك السبل ، ماذا تكون لولا الله ؟!

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) سورة ق : ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) البينة : ٥ .
(٤) النحل : ٥٣ .

الله هو صاحب كل فضل عليك ، وأنت بغير الله لا شيء ، لا تكون شيئًا مذكورًا، ولا شيئًا موجودًا ، لهذا يجب أن يكون الإنسان دائمًا مع الله ، فإذا شرد عن الله بالذنوب أو الغفلة ، فلا بد له من أن يعود . . . أن يرجع إلى بيته . . . إلى بيته الأصلى ، وذلك هو التوبة .

التوبة عودة إلى الله ، عودة إلى الأصل ، ومن فضل الله علينا أن رزقنا التوبة ، أن أعطانا حق التوبة ، فكل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون المستغفرون .

ليس عجيبًا أن يذنب ابن آدم ، ليس عجيبًا أن يتورط فى المعصية ، فهذه طبيعة خلقته ، أنه خلق خلقًا مزدوجًا ، فيه قبضة الطين ، وفيه نفخة الروح ، الطين يهوى به إلى أسفل ، والروح ترقى به إلى أعلى ، أحيانًا ينزع إلى الطين ، ويخلد إلى الأرض ، فيكون كالحيوان أو أضل سبيلاً ، وأحيانًا يعلو ويعلو ، حتى يكون كالملائكة ، أو أرفع مقامًا .

فلا عجب من أن يغلب الطين فى بعض الأحيان على الروح ، أن يغلب العنصر الأرضى العنصر السماوى ، أن يغلب العنصر الحيوانى فى الإنسان العنصر الربانى فيه، فيقع فى المعاصى .

ليس عجيبًا أن يحدث ذلك ، وقد عصى أبو البشرية آدم ، عصى الإنسان الأول، أغواه الشيطان فأوقعه فى المخالفة ، دلاه بغرور ، وقاسمه وزوجه ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١) وقال له : ﴿ . . . هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾(٢)، وما زال يوسوس له حتى صدقه ، وأكل من الشجرة ﴿ . . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) .

هذا فارق ما بين الإسلام والنصرانية ، النصرانية تجعل خطيئة آدم معلقة برقاب البشر جميعًا ، فهم يحملون وزر معصية لم يفعلوها ، ولم يشهدوها ، لا هم ، ولا آباؤهم ، ولا أجدادهم ، ولا أجداد أجدادهم ، مع أن العدالة الإلهية أقرت فى القرآن ، وفى صحف موسى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(٤) .

---

(١) الأعراف : ٢١ .
(٢) طه : ١٢٠ .
(٣) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤) النجم : ٣٧ ، ٣٨ .

كيف يحمل الإنسان ذنب غيره ؟! ثم إن معصية آدم قد انتهت بالتوبة ، الله اجتباه فتاب عليه وهدى ، فآدم حينما شعر بأن الشيطان غره ، وورطه فى هذه المعصية ، سرعان ما استيقظ هذا الكائن الواعى فى ضميره ، هذا الكائن الروحى ، هذه النفخة ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . . . ﴾ (١) ، غلب هذا العنصر ، فسرعان ما رجع إلى ربه ، وقرع بابه ، تائبًا مستغفرًا ، وقال هو وزوجه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

انتهت معصية آدم بالتوبة ، وهكذا ينبغى أن تنتهى كل معصية يقترفها أبناء آدم .

ليس عجيبًا أن يذنب ابن آدم ، فقد أذنب أبوه آدم ، إنما العجيب أن يتمادى فى الذنوب ، أن يستمرىء طريق المعصية ، ويتوغل فيه ، أن ينسى ربه ، وينسى التوبة إليه ، فتتراكم عليه الذنوب ، وتتراكم حتى يسوّد قلبه والعياذ بالله ، وهنا الخطورة.

الخطورة فى ألا يبادر الإنسان بالتوبة ، النبى ﷺ يقول (٤) : « إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكتت فى قلبه نكتة ، فإنه هو نزع واستغفر صقلت » أى مسح وجلى ومحى أثر المعصية ، وعاد القلب أبيض كالمرآة الصافية فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه » إذا أذنب ذنبًا آخر ، نكت فى قلبه نكتة سوداء أخرى ، ثم لا يزال يذنب وتتكاثر هذه النكت السوداء ،والنقاط السوداء ، حتى تزيد على القلب وتغطى عليه : فذلك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ . (٢) الأعراف : ٢٣ . (٣) البقرة : ٣٧ .

(٤) فى حديث أبى هريرة الذى رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٤٧٠ ، الحديث ٩٠٨) .

ورواه السيوطى فى (الجامع الصغير) وصححه ، ولفظه : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه ، وهو الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رواه أحمد ، والترمذى ، والنسائى ،وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه،والحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة .

(٥) المطففين : ١٤ .

الخطر أن يغفل الإنسان عن التوبة ، ويستمر فى طريق الشيطان ، ولا يحس بما هو فيه من خطأ وخطيئة ، هذا هو الخطر .

ويأتى هذا الخطر من طول الأمل ، طول الأمل معناه : استبعاد الموت ، أن الموت لا يزال بعيدًا ، وأن العمر لا يزال فيه بقية ، ابن العشرين يقول : أتوب حينما أبلغ الثلاثين ، وابن الثلاثين يقول : حينما أبلغ الأربعين ، وابن الأربعين يقول : حينما أبلغ الستين ، وابن الستين يقول : عند الثمانين ، وهكذا (١) .

هكذا يطيل الإنسان أمله ، ولا يدرى أن الموت أقرب من لمح البصر كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله ، إنك حينما تصبح لا تدرى : أيأتى عليك المساء أم لا ؟ وقد جاء فى الحديث : « إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح » (٢) .

حينما تنام لا تدرى أتعود الروح مرة أخرى إليك ، أم تقيض فى نومك ؟ إنك حينما تلبس ثيابك ، لا تدرى أتنزعها أنت بيديك ، أم تنزعها عنك يد غاسلك ؟

---

(١) وما أجمل ما حكاه الإمام الغزالى - حول هذا المعنى - فى إحيائه ، إذ يقول : والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبدًا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ، ويقدر توابع البقاء ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر ، موقوفًا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت ، والحاجة إلى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخًا ، فإذا صار شيخًا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار،وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذى يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه (الإحياء ٤/٤٥٦ - ٤٥٧) ط ، دار المعرفة ببيروت .

(٢) من حديث ابن عمر ، رواه البخارى ، والترمذى ، وأحمد ، والبيهقى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٨٦٦ ، الحديث ٢٠٨٠) و(شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٤/ ٢٣٠ ، الحديث ٤٠٢٩) .

إنك حينما تخرج من بيتك لا تدرى متى تكون الخطوة الثانية وإلى أين ؟ أهى إلى الطريق أم إلى القبر ؟ ألم تسمع إلى الذين يموتون بالسكتة القلبية أو الذبحة الصدرية، أو بالحوادث المفاجئة .

الناس يموتون فى حوادث مفاجئة فى هذا العصر ، حتى أن الإنسان لا يكون له علاقة بالحادث فيموت ، يمشى فى الطريق بعيدًا فتأتى سيارة فتأخذه ، طيارات تنزل على أهل قرى ، لا هم راكبون فيها ولا غير ذلك ، وتأتى فتأخذهم ، ألم تسمعوا؟ الموت قريب وقريب ، والمسألة مسألة مصيرية ، إنها جنة أو نار ، ليست خسارة درهم أو دينار ، إما أن تخسر الجنة ، وإما أن تدخل النار والعياذ بالله ، إنها أشياء خطيرة فكيف تؤجلها ؟!

لقد قيل : أكثر أهل النار (المسوّفون) ، أتدرون ما المسوّفون : المسوّفون الذين يقولون : سوف نتوب ، سوف نعمل ، سوف نرجع ، وقد قال بعض السلف : (سوف) جند من جنود إبليس ، لأنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد ، لا تضمن عمرك ساعة واحدة ، وحينما يأتى ملك الموت ليقبض روح الإنسان يتمنى لو أجله وقتًا قصيرًا : أسبوعًا .. يومًا .. نصف يوم .. ساعة .. دقيقة ، وهيهات ، الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١) ، لولا أخرتنى إلى أجل قريب : أى مهلة .. دقائق يمكن أن يتصدق فيها ببعض أمواله ، وينفق فى بعض الخيرات ، ويوقف بعض الأشياء على الجهات الخيرية ، ويرد بعض المظالم ، ويستسمح بعض الناس الذين أساء إليهم ، يريد دقائق يمكنه فيها أن يفعل ذلك .

كانت أمامك هذه الدقائق ، وكانت أمامك الساعات ، وكانت أمامك الأيام ، وكانت أمامك الأسابيع ، وكانت أمامك الشهور ، وكانت أمامك الأعوام ، كل هذا لم يكف ، ثم تأتى الآن وتقول : ﴿ .. لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فأَصَّدَّقَ

---

(١) المنافقون : ٩ - ١٠ .

وأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، وهنا يكون الرد الإلهى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

إن طول الأمل ، إن استبعاد الموت ، خطر على الإنسان ، يجعله يسوّف ويؤخر ويؤجل فى التوبة ، ثم يفجأه الموت ، ولم يعد له عدته ، ولم يأخذ للآخرة أهبته، فالبدار البدار ، قبل أن تتفاقم الذنوب وتستفحل .

إن بعض الأمراض إذا عولجت فى أولها ، تعالج بسهولة ويسر ، فإذا تركت ، فإنها تكون مضاعفات ومضاعفات ، يصعب بعد ذلك علاجها ، وكذلك الذنوب ، كل من أذنب ذنبًا فعليه أن يتوب ، وعليه أن يبادر بالتوبة ، وإلا كان ظالمًا ، الله تعالى يقول : ﴿ . . . وَمَن لَّم يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

والتوبة مطلوبة من الناس . . . كل الناس . . التوبة مطلوبة من جميع الناس ، الله تعالى يقول : ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُواْ إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ (٥) .

المؤمنون مطالبون بالتوبة ، وليس هناك إنسان يستطيع أن يقول : لا ذنب لى ، فعمّ أتوب ؟ ومم أتوب ؟ أنا نقى الصفحة ، مبرأ من كل عيب ، وهذا هو الغرور الذى لا يليق بمؤمن ، فالمؤمن يشعر أبدًا أنه مقصر فى حق الله عز وجل ، مفرط فى جنبه ، هو يفعل الطاعات ويخشى ألا تقبل منه ، أما المنافق فيرتكب المعاصى ويقول: أطمع أن تغفر لى ! فرق بين المؤمن والمنافق ، إن المؤمن يشعر دائمًا بأنه لم يؤد حق الله عز وجل كما ينبغى لجلال وجهه ، وسابغ نعمه وفضله ، ولهذا فهو دائم الاستغفار ، دائم التوبة إلى الله عز وجل .

---

(١) المنافقون : ١٠ .
(٢) المنافقون : ١١ .
(٣) الحجرات : ١١ .
(٤) النور : ٣١ .
(٥) التحريم : ٨ ، وتمامها : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

● **والناس فى التوبة أصناف :**

هناك من يتوب من الشرك والعياذ بالله ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ (١) .

وهناك من يتوب من النفاق ، كما قال الله تعالى فى شأن جماعة من المنافقين : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِى الأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

وهناك من يتوب من الكبائر (٣) ، شرب الخمر ، أو اقتراف الزنا ، أو تناول المخدرات ، أو أكل الربا ، أو أكل مال اليتيم ، أو شهد شهادة زور ، أو عق والديه ، أو قطع رحمه ، أو فعل غير ذلك من كبائر الإثم التى ذكرها النبى ﷺ ، وما أكثرها .

وكبائر الذنوب لا يصلح لها إلا التوبة ، الصغائر يمكن أن تكفر بالحسنات ، بالصلوات الخمس ، بالجمعة إلى الجمعة ، برمضان إلى رمضان ، كل هذه مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر (٤) ، أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة .

هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من صغائر المحرمات أيضًا ، فالحرام حرام ، وإن كان من الصغائر ، لا يستصغر شيئًا بالنسبة لله عز وجل ، وقد قال بعض السلف : لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت .

إنك إذا أسأت إلى زميل لك بكلمة ، فقد تكون شيئًا بسيطًا ، ولكن إذا أسأت بهذه الكلمة نفسها إلى أبيك ، أو إلى شيخك ، فهذه تكبر وتكبر .

---

(١) الأنفال : ٣٨ .
(٢) التوبة : ٧٤ .

(٣) اختلف فى تحديد الكبيرة اختلافًا كثيرًا ، ولعل الأرجح أنها : ما أوجب الله عليه حدًا فى الدنيا ، أو رتب عليه وعيدًا شديدًا فى الآخرة ، وانظر تعليق الشيخ على الحديث ٣٥٨ من كتابه ـ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب) .

(٤) يشير إلى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٣٩ ، الحديث ٣٥٨) .

وهكذا نرى الشيء الواحد يتعاظم بالنسبة لمن صدر فى حقه ، فكيف إذا كانت إساءتك تتعلق بذات الله العلى الكبير ؟ ولهذا روى البخارى عن ابن مسعود : «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه ، فقال به هكذا » [1] قال الراوى وأشار بيده فوق أنفه .

هذا هو شأن المؤمنين ، لا يستصغرون ذنبًا ، بل كانوا يحذرون من استصغار الذنوب ، والاستهانة بالمعاصى .

كان بعض السلف يقول : إن الذنب الذى يخشى ألا يغفر ، هو الذى يقول فيه صاحبه : ليت كل ذنب فعلته مثل هذا ، يعنى هذا ذنب بسيط ، هذا هو الخطأ .

ولما زار بعض الصالحين أخًا لهم ، ووجدوه يبكى وهو مريض ، فقالوا له : يا فلان ما الذى يجعلك تبكى كل هذا البكاء ؟ والله ما رأينا عليك كبيرة اقترفتها ، ولا فريضة تركتها ، فقال : والله ما أبكى على هذا ، ولكن أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا ، أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم !

هكذا قال القرآن فى شأن أولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك ، وتحدثوا عن الصديقة بنت الصدّيق بسوء ، فقال الله تعالى فى أمرهم : ﴿ ... وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

كلمة أحيانًا .. كلمة يقولها المرء لا يلقى لها بالاً ، كما صح فى الحديث ، يهوى بها فى جهنم سبعين خريفًا [3] . سبعين سنة ، من أجل كلمة لا يلقى لها بالاً ، ولا يلتفت إليها .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات موقوفًا على ابن مسعود ، (الحديث ٦٣٠٨) البخارى مع الفتح كما رواه أحمد فى مسند ابن مسعود ، وصححه الشيخ شاكر (٣٦٢٧) و(٣٦٢٩) .

(٢) النور : ١٥ .

(٣) روى الترمذى وابن ماجه : « أنّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا ، يهوى بها سبعين خريفًا » وروى الحاكم وصححه : « أنّ الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفًا فى النار » أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٧٤٩ - ٧٥٠ ، الأحاديث : ١٧٣٤ ، ١٧٣٥ ، ١٧٣٦) .

قد ثبت عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت عن إحدى ضرائرها فى حديث مع النبى ﷺ : ما يعجبك من فلانة إلا أنها - وأشارت بيدها تعنى أنها قصيرة - ولم تكمل الجملة ، ذكرت اسم (انّ) بدون خبرها ، فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » (١) ، كلمة جديرة أن تكدر بحرًا .

الخطر فى هذه المعاصى التى يستهين بها الإنسان ، ويقول : هذه لا تستحق التوبة، لا ، يجب أن يتوب الإنسان من هذا كله .

هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من الصغائر ، وهناك من يتوب من الشبهات ، فإن الشبهات مؤدية إلى الحرام : « . . . ومن وقع فى الشبهات ، وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه . . . » (٢) ، وهناك من يتوب من المكروهات ، حتى المكروه لا يريد أن يقع فيه ، وهناك من يتوب عن بعض المباحات ، الناس درجات ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين (٣) .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، والبيهقى ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٧٤٢/٢ ، الحديث ١٧٠٦) ، ورواه النووى فى (الأذكار) ثم قال : مزجته : أى خالطته مخالطة - يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة نتنها وقبحها ، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها ، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ فى الذم لها هذا المبلغ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ - ٤] نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه .

(٢) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، من حديث النعمان ابن بشير ، ونصه كاملاً : « الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإنّ حمى الله محارمه ، ألا وإنّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٥٠٦/٢ ، الحديث ٩٦٦) ، وهو أحد الأحاديث الأربعين النووية ، وأفاض فى شرحه ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) لما اشتمل عليه من أحكام وتوجيهات .

(٣) هو من كلام أبى سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر فى ترجمته ، وهو من كبار الصوفية، توفى فى سنة مائتين وثمانين للهجرة ، وعده بعضهم حديثًا وليس كذلك (كشف الخفاء للشيخ اسماعيل العجلونى ، برقم ١١٣٧) .

هناك من يتوب عن مجرد الغفلة عن الله . . أنّ وقتًا مر من حياته لم يذكر الله تعالى فيه ، فهو يتوب ويستغفر من هذا ، وهذا ما نبه عليه النبى ﷺ حين قال : «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » (١) .

محمد ﷺ الذى كان يراقب ربه فى غدواته وروحاته ، وحركاته وسكناته ، وليله ونهاره ، وخلوته وجلوته ، ولم يكن يغفل عن ربه طرفة عين ، تنام عيناه وقلبه لا ينام ، مع هذا كله يقول : « توبوا إلى الله ، فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » .

بل حدّث بعض أصحابه فقال : كنا نعد للنبى ﷺ فى مجلس واحد سبعين مرة أو مائة مرة : رب اغفر لى وتب على ، إنك أنت التواب الغفور (٢) .

وقد رويت عنه صيغ من صيغ الاستغفار ، فى قمة الصيغ ، يستغفر الله فى صباحه ومسائه ،وسحره وسجوده ، هكذا كان ﷺ .

كان يقول : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، وأبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٣) هذه سيدة صيغ الاستغفار (٤) .

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٢) ، والبخارى فى الأدب المفرد (٦٢١) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٤٤٦ ، ٤٤٧) ،وأحمد (٤/ ٢٦٠) كلهم عن الأغر المزنى .

(٢) رواه أبو داود فى الصلاة (١٥١٦) ،وابن ماجه فى الأدب (٣٨١٤) ،والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٠) وقال : حسن صحيح ، وأحمد فى المسند ، وابن حبان فى صحيحه (الإحسان : ٩٢٧) كلهم من حديث ابن عمر .

(٣) رواه البخارى ، والنسائى ، والترمذى ، وهو من حديث شداد بن أوس (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٢٥ ، حديث ٣٣٥) وانظر : البخارى مع الفتح ، حديث (٦٠٣٦) ، ومعنى (أبوء) : أقرّ وأعترف .

(٤) قال الشيخ القرضاوى معلقًا على هذا الحديث فى كتابه (المنتقى) : إنما كان سيد الاستغفار ، لأنه يتضمن جملة من المعانى الربانية العميقة : تضمن توحيد الربوبية (اللهم أنت ربى) وتوحيد الإلهية (لا إله إلا أنت) والإقرار بالخالقية والعبودية (خلقتنى وأنا عبدك) والمبايعة لله على الوفاء (وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) والبراءة من المعصية والاستعاذة =

كان من أدعيته واستغفاراته ﷺ : اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ،وأنت على كل شىء قدير » (١) .

هذا هو الشعور بعظمة الله تبارك وتعالى ،وأنه يستحق من الإنسان الكثير والكثير، وخاصة من عظمت نعم الله تعالى عليه ، مثل محمد ﷺ ، فهو يشعر بأن مقصر فى حق ربه عز وجل .

هناك من يتوب من مجرد أن يمر وقت لا يذكر الله تعالى فيه .

التوبة درجات ، والقرآن الكريم يذكر أهل عرفات وأهل الحج ، ويأمرهم بعد هذا الموقف العظيم أن يستغفروا الله ، فشأن المؤمنين دائمًا بعد الطاعات أن يستغفروا،انظروا : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُواْ اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

بعد عرفات ، بعد هذا الموقف العظيم ، يطلب منهم أن يستغفروا الله ، كما وصف الله المؤمنين المحسنين المتقين بقوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٣) يقول الحسن البصرى رضى الله عنه :مدوا صلاتهم إلى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل !!

مم يستغفرون ؟! الذين أحيوا الليل ولم يهجعوا فيه إلا قليلاً ، عند السحر يستغفرون الله ، إنه هؤلاء هم أهل الكمال ، يستشعرون النقص دائمًا ، ولا يظنون أبدًا أنهم وفوا لله حقه .

= بالله منها (أعوذ بك من شر ما صنعت) والإقرار لله بالنعمة ، وعلى النفس بالذنب ، (أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى) وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره (فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه ، ويستقبل بها صباحه .

(١) رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٩٨) ومسلم فى الذكر والدعاء (٩/ ٢٧) عن أبى موسى .

(٢) البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

إن التوبة على درجات ، كل يتوب بحسب درجته ، أما نحن فإننا نتوب من الكبائر والصغائر والمحرمات نتوب مما فرطنا فيه من حقوق الله وحقوق العباد ، وما أكثر تقصيرنا وتفريطنا .

لا ينبغى أبدًا أن نؤخر التوبة ، فإننا لا ندرى ماذا يُصنع بنا غدًا ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . . . ﴾ (١) .

البدار البدار بالتوبة ، البدار البدار بالتوبة قبل أن يفجأ أحدنا الموت ، ويطلب التأخير ولا تأخير ، والإمهال ولا إمهال فـ : ﴿ . . . إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ، لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

أقول قولى هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد : فقد ورد أن فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا استجيب له ، ولعلها تكون هذه الساعة .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا،وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا أقل من ذلك ، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا ، اللهم اجعل يوم المسلمين خيرًا من أمسهم ، واجعل غدهم خيرًا من يومهم ، وأحسن عاقبتهم فى الأمور كلها ، وأجرنا اللهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم أكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ،وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ،وارض عنا وارضنا ، اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى فلسطين ، وانصر إخواننا المجاهدين فى أفغانستان ،وأيد كلمة الإخوة المجاهدين العاملين للحق فى لبنان ، اللهم كن للمسلمين فى كل مكان ،

---

(١) لقمان : ٣٤ .

(٢) نوح : ٤ .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام اللهم رد عنا كيدهم ، وفل حدهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) . اللهم آمين .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) الحشر : ١٠ .
(٣) النحل : ٩٠ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .